

# دستویف کی

الفلاح ماری

ترجمہ یوسف نبیل



مكتبة فريق\_متميزون.

لتحويل الكتب النادرة إلى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:



## كلمة مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي. وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق - متميزون-

**انضم إلى الجروب**

**انضم إلى القناة**

الفلاح ماري

قصة مترجمة (١٨٧٦)..

الكاتب: ديستوفسكي

ترجمة: يوسف نبيل

## مقدمة

كتب دستوفسكي هذه القصة في عام 1876. وهي تعد القصة الوحيدة بمصاحبة «ذكريات من منزل الأموات» التي تحدث فيها الكاتب عن الفترة التي قضاها في سيبيريا محكومًا عليه بالأشغال الشاقة. إنها قصة قصيرة وصغيرة في حجمها تعد بمثابة نوع من التأمل السكري لدستوفسكي حول الطبيعة البشرية. لا يمكن أن تمر قصة واحدة لهذا الأديب دون أن يقدم لنا مفهومًا عن الطبيعة البشرية وتناقضاتها وحجم التعقيد الهائل بها فهي كون وعالم كامل. يقدم لنا دستوفسكي في هذه القصة إيمانًا حقيقيًا بالإنسان مهما انحطت صورته وظروفه فيظل لديه القدرة على مفارقة الطبيعة والواقع... إنه ليس خاضعًا لحتميات طبيعية أو بيولوجية أو سلوكية بل لديه تلك القوة التي تدفعه لفعل غير متوقع، حتى وإن لم يستخدم هذه القوة والإمكانية في غالب الوقت إلا أنها لديه وتظهر في بعض الأوقات. إن الإنسان لدى دستوفسكي لا يمكن وصفه بالمادية... إنه مخلوق معقد لديه دوافع عديدة روحية، ولا أقصد هنا بدوافع المعنى النفسي المباشر الذي يجبر الإنسان على فعل ما، فدستوفسكي يصر دائمًا في قصصه على تلك الهبة الممنوحة للإنسان من الحرية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



أعتقد أن قراءة كل تلك الاعترافات الإيمانية أمر شديد الملل ومع ذلك فسوف أقص عليكم إحدى القصص.. إنها ليست مجرد قصة.. إنها ذكرى.. ذكرى بعيدة أريد تذكرها وحكايتها الآن بالتحديد. وفي نهايتها سنصل إلى حقيقة ما عن شعبنا.. وقتها لم أكن قد تجاوزت التاسعة.. لا... بل كنت في بدايتها... لا.. لن أبدأ القصة كذلك.. سنبدأ بالآتي: عندما كنت في التاسعة والعشرين!.

حدث ذلك في اليوم الثاني من أسبوع عيد القيامة. كان الجو دافئاً والسماء زرقاء والشمس مشرقة ساطعة أما روحي فكانت كئيبة جداً. سرت الهوينى خلف ثكنات السجن، حدثت في سياجه الكئيب محصياً قضبانه، ولم تكن لديّ النية في مواصلة العد، أعتقد أن العد كان مجرد عادة. كان ذلك اليوم الثاني من أيام العطلة في السجن ولم يكن من المعتاد أن يصطحبوا المساجين في تلك الأيام للعمل، وكانت هناك أعداد من السكارى يتشاجرون ويعبثون مثيرين الجلبة باستمرار في كل ركن كانت هناك أغاني شائنة مقززة وأوراق كوتشينة ملقاة بجانب الأسرة. والعديد من المدانين محكوم عليهم بالعقوبة من زملائهم لعنفٍ ما، مضروبين حتى الموت، راقدين جنب الفراش مغطين بجلد الغنم ليتعافوا مرة أخرى. استألت السكاكين عدة مرات بالفعل. وفي هذين اليومين من العطلة كان كل ذلك يعذبني حتى أوشتك على المرض. وبالفعل لم يمكنني التحمل دون أن أشعر بالاشمئزاز من جلبة وفوضى السكارى، خاصة في ذلك المكان في تلك الأيام لم ينظر ضباط السجن إلى ما يجري ولم يقوموا بأية تفتيشات ولم يبحثوا عن الفودكا متقهمين أنه يجب عليهم السماح بتلك الأمور البغيضة ليستمتع بها المساجين مرة في العام، وإلا ستصبح الأمور أسوأ إن لم يفعلوا.

أخيراً اضطرمت فجأة غضب شديد في قلبي. وقد إلتقاني سجين سياسي يدعى "م" ونظر إليّ بعبوس. إلتمعت عيناه وارتعشت شفثاه قائلاً: "كم أمقت هؤلاء المجرمين (1)" وتمتم لي بهذه الكلمات من بين أسنانه وسار مبتعداً. عدت إلى باحة السجن على الرغم من مرور ربع ساعة فقط من خروجي منه. وكأني قد جننت. ساعتها اعترض ستة تابعين أقوياء طريق جازين التتري المخمور وبدأوا في ضربه... ضربوه بغباء، فمن الممكن لجمل أن يموت من فرط تلك الضربات، ولكنهم عرفوا أن هذا الهرقل لا يمكن قتله بسهولة، لذلك ضربوه دون شفقة. وأثناء عودتي لاحظت على ذلك الفراش في الركن البعيد من الغرفة جازين يرقد فاقدًا الوعي.. لا تبدو عليه أمارات الحياة. لقد استلقي مغطى بجلد الغنم وسار الجميع بالقرب منه دون أن يقولوا كلمة واحدة رغم أنهم كانوا يأملون أنه سيفيق مرة أخرى في الصباح، إلا أن الحظ عانده؛ فربما يموت المرء إثر ضرب مشابه.

أكملت طريقي إلى مكاني المواجه للنافذة ذات القضبان الحديدية، واستلقيت على ظهري ويدي خلف رأسي وأغمضت عيني، أحببت الرقود فرجل نائم لا يزعج أحداً، في ذلك الوضع يمكن للمرء أن يحلم ويفكر. ولكني لم أستطع أن أحلم فقد كان قلبي يدق بصعوبة وكلمات السيد "م" «كم أمقت هؤلاء المجرمين» ترن في رأسي... لماذا أصف مشاعري؟ أحياناً، وإلى يومنا هذا، أحلم في المساء بهذه الأوقات وليست لديّ أحلام أكثر بؤساً منها. ربما سيلاحظ أنني لم أتكلم عن حياتي

في السجن إلى يومنا هذا في أي كتاب؛ إلا مرة واحدة بصعوبة، وكان ذلك في كتاب "ذكريات من منزل الأموات" الذي كتبتة من خمسة عشر عامًا من خلال شخصية مُتخيلة: مجرم قتل زوجته. وعلى ذكر الأمر فقد ذكرتُ ذلك بسبب أن الكثيرين - كما أفترض - إلى الآن يظنون أنني قد حكم علي بالأشغال الشاقة لقيامي بقتل زوجتي.

وبالتدريج غصتُ في غياهب النسيان والإهمال وغصتُ تدريجيًا في بحر الذكريات وطوال تلك الأعوام الأربعة التي قضيتها في السجن كنتُ دائمًا ما أستدعي الماضي، ويبدو كما لو عشت حياتي بأكملها مرة أخرى بالتذكر. لقد عصفت هذه الذكريات بذهني وحدها، لم أقم بإرادتي باستدعائها، ستبدأ الذكريات من نقطة ما... شيء ما صغير ربما في بعض الأوقات لا يُلاحظ والآن ينهض بالتدريج ليرسم صورة كاملة ويخلق انطباعًا حيًا وكاملًا. لقد تعودت أن أحل هذه الانطباعات وأن أضفي صورًا جديدة على ما حدث منذ زمن طويل، والأفضل من كل ذلك أنني تعودت على أن أصححها.. أصححها باستمرار، فقد شكل ذلك متعتي الكبرى و بهذه المناسبة تذكرت فجأة لسبب ما مشهد عابر في طفولتي المبكرة؛ عندما كنت في عمر التاسعة فقط... مشهد عابر كان يجب أن أظن أنني نسيتَه تمامًا، ولكن في ذلك الوقت كنت مغرمًا بذكريات طفولتي البعيدة. لقد تذكرت شهر أغسطس في منزلنا الريفي... يوم مشرق جاف، ولكنه بارد وعاصف بعض الشيء، فقد كان الصيف على وشك الانتهاء، وقريبًا سيتوجب علينا الذهاب إلى موسكو لنشعر بسأم الشتاء مع دروس اللغة الفرنسية، كنت حزيبًا لأنني سأغادر الريف. سرتُ على الأرض المغطاة بالعشب الأخضر، وهبطتُ إلى الوادي حيث الأدغال الكثيفة تملأها الأشجار التي غطت الجزء البعيد من الوادي بقدر امتداده. واندفعتُ إلى اليمين في وسط الأشجار، وسمعت صوت فلاح يحرث الأرض بمفرده على بعد ثلاثين خطوة تقريبًا. عرفتُ أنه كان يحرث الوادي الشديد الانحدار. كان الجواد يتحرك بمشقة بالغة، ومن وقت لآخر كان صوت الفلاح يتهدى إلى أذني بينما يقول: "هيا.. هيا".

كنتُ أعرف تقريبًا كل فلاحينا، ولكني لم أهتم بمعرفة من يحرث الآن؛ فقد كنتُ غارقًا في أفكارِي الخاصة. مشغولًا أقطع الأغصان من شجر الجوز لأطارد بها الضفادع. يمكن الحصول على سياط جيدة من أغصان شجر الجوز، ولكنها لا تعمّر طويلًا بينما على النقيض تمامًا أغصان شجر البتولا.

كنت مهتمًا أيضًا بالخنافس وحشرات أخرى تعودت جمعها. كانت أشكالها مزخرفة للغاية. وكنت مغرمًا أيضًا بالسحالي الصغيرة الحمراء والصفراء.. السحالي الذكية الصغيرة بتلك البقع السوداء ولكني كنت أخاف من الثعابين ومع ذلك فقد كانت الثعابين أشد ندرة من السحالي. ولم يكن هناك العديد من فطر عيش الغراب، ولكي يحصل المرء على فطر عيش الغراب؛ عليه أن يذهب إلى خشب أشجار البتولا، وكنت على وشك الذهاب إليها. لم أحب شيء في العالم قدر حبي للأخشاب وفطر عيش الغراب خاصتها وتوتها البري بخنافسها وطيورها وقنافذها وسناجبها. الرائحة الرطبة للأوراق الميتة أحببتها للغاية حتى أنني أشم شذا خشب شجر البتولا بينما أكتب ذلك... كل هذه الانطباعات ستبقى بداخلي طيلة حياتي.

في وسط ذلك الهدوء العميق وفجأة سمعت صرخة واضحة جلية تقول: "ذئب" .. صرختُ بكل هلع بأعلى صوت لدي، وركضتُ بعيداً عن الأشجار صوب الفلاح الذي كان يحرق الأرض. لقد كان الفلاح ماري الذي يعمل لدينا. لا أعلم إن كان هناك اسم مشابه أم لا فالجميع هنا يدعونه ماري. فلاح مهذب في الخمسينيات من عمره شعره رمادي كثيف وجميل ينساب على جبهته البنية الداكنة. لقد عرفته، ولكن نادراً ما كلمته إلى تلك اللحظة. أوقف جواده عندما سمعني أصرخ. قبضتُ بإحدى يدي على المحراث متقطع الأنفاس وبالأخرى أمسكت كمة، انتبه إلى هلعي بينما صرختُ لاهتاً:

- هناك ذئب.

حرك رأسه ولم يكف عن النظر في كل الاتجاهات. وفي الأغلب كان يصدقني:

- أين هو الذئب؟ لقد سمعت صرخة.. أحدهم صرخ ذئب.

- هراء.. هراء.. أي ذئب؟ لماذا حدث ذلك؟ كان الأمر من صنع خيالك كيف يمكن أن يوجد ذئب؟

دمدم ببعض الكلمات مطمئناً إياي، ولكنني كنت أرتعش كاملاً وظللت ماسكاً بردائه، ولا بد أنني كنت شاحباً للغاية. نظر إليّ بابتسامة مضطربة، وبدا قلقه واضحاً عليّ.

- لماذا خفت؟ يا عزيزي.. تعال.. تعال يا صغيري.

ومد يده وربتت يده على خدي.

- تعال.. تعال هنا.. يحفظك المسيح.. أرشم نفسك بعلامة الصليب.

ولكنني لم أرشم نفسي بالصليب... كانت شفثاي ترتعش، وقد اعتقدتُ أن ذلك على وجه الخصوص قد صدمه؛ فقد مد إصبعه الأسمر الغليظ الملطخ بتراب الأرض ولمس بنعومة شفثي قائلاً:

- تعال هنا يا عزيزي.. ما الأمر؟ تعال تعال.

قالها بابتسامة بطيئة أمومية. وقد فهمت أخيراً أنه ليس ثمة ذئب، وأن الصرخة التي سمعتها كانت من وحي خيالي. ومع ذلك فقد كانت الصرخة شديدة الوضوح ولكنني قد تخيلتُ من قبل مثل تلك الصرخات مرة أو مرتين كنتُ واعياً بذلك، وقد زالت تلك الهلوسات بعد ذلك عندما كبرت.

قلت بينما أنظر له متسائلاً بجبن:

- حسناً... سوف أذهب إذن.

فأجابني بينما ظل مبتسماً تلك الابتسامة الأمومية الحانية.

- حسناً... افعل ذلك وسوف أستمر بمراقبتك لن أسمح للذئب أن يتمكن منك. سوف يحرسك المسيح.. أركض.. هيا يا عزيزي انصرف.



أشار بيده راسماً علامة الصليب لي وله، سبرت مبتعداً ناظراً خلفي كل عشر خطوات تقريباً. ظل ماري واقفاً مع فرسه بينما كنت أبتعد. ناظراً إليّ ومومناً لي برأسه في كل مرة ألتفتُ صوبه. ولا بد أن أعترف أنني شعرت بالخزي قليلاً من رؤيته لي وأنا في ذلك الهلع ولكنني كنت ما أزال أشعر بالخوف من الذنب عندما ابتعدتُ حتى وصلتُ إلى أول إسطبل في نصف المسافة لمنحدر الوادي. وهناك اختفى خوفي كاملاً وطار كلب حظيرتنا فولتسوك هارعاً للقائي. شعرت بالأمان إلى حد كبير مع فولتسوك، وإلتفتُ إلى الخلف ناظراً للمرة الأخيرة إلى ماري... لم أتمكن من رؤية وجهه بوضوح، ولكنني شعرت بأنه مازال يومئ لي مبتسماً بحنان، لوحته له ولوح لي هو الآخر، وصاح مرة أخرى في جواده: "هيا.. هيا.." وسمعت صيحته على مسافة بعيدة وعاد الجواد في الحرث مرة أخرى.

تذكرت كل هذا دفعة واحدة ولا أعرف السبب، ولكنني تذكرت ذلك بكامل التفاصيل بشكل دقيق للغاية. أيقظتُ نفسي فجأة وانتصبتُ على طرف الفراش، وأذكر أنني وجدت نفسي ما زلت أبتسم بهدوء على أثر ذكرياتي. استغرقتُ في التفكير والتأمل في تلك الذكريات لدقيقة أخرى.

عندما عدت إلى المنزل في هذا اليوم لم أخبر أحد بمغامرتي مع ماري. كانت بالفعل مغامرة صعبة، وفي الواقع سرعان ما نسيته ماري، إلتقيته أحياناً ولم أتحدث معه أبداً عن الذنب أو أي شيء آخر، وبعد كل ذلك.. بعد عشرين عاماً ومن سيبيريا تذكرتُ ذلك اللقاء بكل هذا الوضوح الذي شمل أصغر التفاصيل. لا بد وأن ذلك اللقاء قد نُفِث في نفسي مع أنني لم أعلم شيئاً عن ذلك، وظهرت فجأة الذكرى عندما كنت في حاجة إليها... لقد تذكرت تلك الابتسامة الحنونة لذلك الفلاح العبد الفقير والطريقة التي لوح بها لي، ورشمه للصليب هازاً رأسه: "لا بد وأنك خفت يا صغيري" وتذكرت بشكل خاص ذلك الإصبع الغليظ الملطخ بتراب الأرض الذي لمس به بنعومة ورقةً خجولة شففتي المرتعشتين.

بالطبع أي شخص كان سيُطمئن طفلاً، ولكن شيئاً ما مختلفاً بعض الشيء بدا لي أنه حدث في ذلك اللقاء المنفرد، وإن كنت ابنه الوحيد لم يكن بإمكانه أن ينظر لي بمثل تلك العينين البارقتين بكل ذلك الحب. فما الذي جعله يفعل ذلك معي؟ لقد كان عبدنا الخادم وكنتُ سيده الصغير رغم كل شيء. أكان مغرمًا بالأطفال؟ بعض الناس هكذا. لقد كان لقاءً فريداً في الحقول المهجورة حيث لم يَرَ أحدٌ ما حدث ربما سوى الله وحده من فوق رأى كم يمكن أن يمتلئ قلب فلاح روسي فظ جاهل لم يكن لديه بعد أي توقع أو فكرة عن حريته بذلك الشعور الإنساني العميق واللذيق، وتلك الرقة التي تكاد تكون أنثوية في حنانها. ألم يكن ذلك ربما ما قصده قسطنطين أكسكوف (2) عندما تحدث عن درجة الثقافة الرفيعة لدى فلاحينا؟

وعندما نهضتُ من على الفراش نظرتُ من حولي وذكرتُ أنني شعرت فجأة أنه يمكنني أن أنظر إلى تلك المخلوقات البائسة بنظرة مختلفة قليلاً، وأنه فجأة وبمعجزة اختفى كل الحقد والكراهية تماماً من قلبي. تجولت ناظراً في وجوه قد إلتقيتها... هذا الفلاح الحليق الموصوم على وجهه كمجرم يصيح في جواده ويغني مخموراً.. ربما يكون هو نفسه ماري!?!... لا يمكنني النظر في قلبه.

هذا المساء إلتقيت السيد "م" مجدداً. يا له من رفيقٍ بائسٍ لابد وأنه لا يحمل أية ذكريات عن الفلاحين الروس أو أي وجهة نظر أخرى عن هؤلاء القوم سوى تلك المقولة: «كم أكره هؤلاء المجرمين!» نعم... لابد أن المساجين المهذبين ذوي الطبع الرقيق عليهم أن يتحملوا أكثر مني.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



# متميزون للكتب النصية



**لينك الانضمام الى الجروب - Group Link**

**لينك القتاة - Link**

# Notes

[←1]

(1) قالها بالفرنسية في الأصل.

[←2]

(2) كاتب روسي من القرن التاسع عشر.